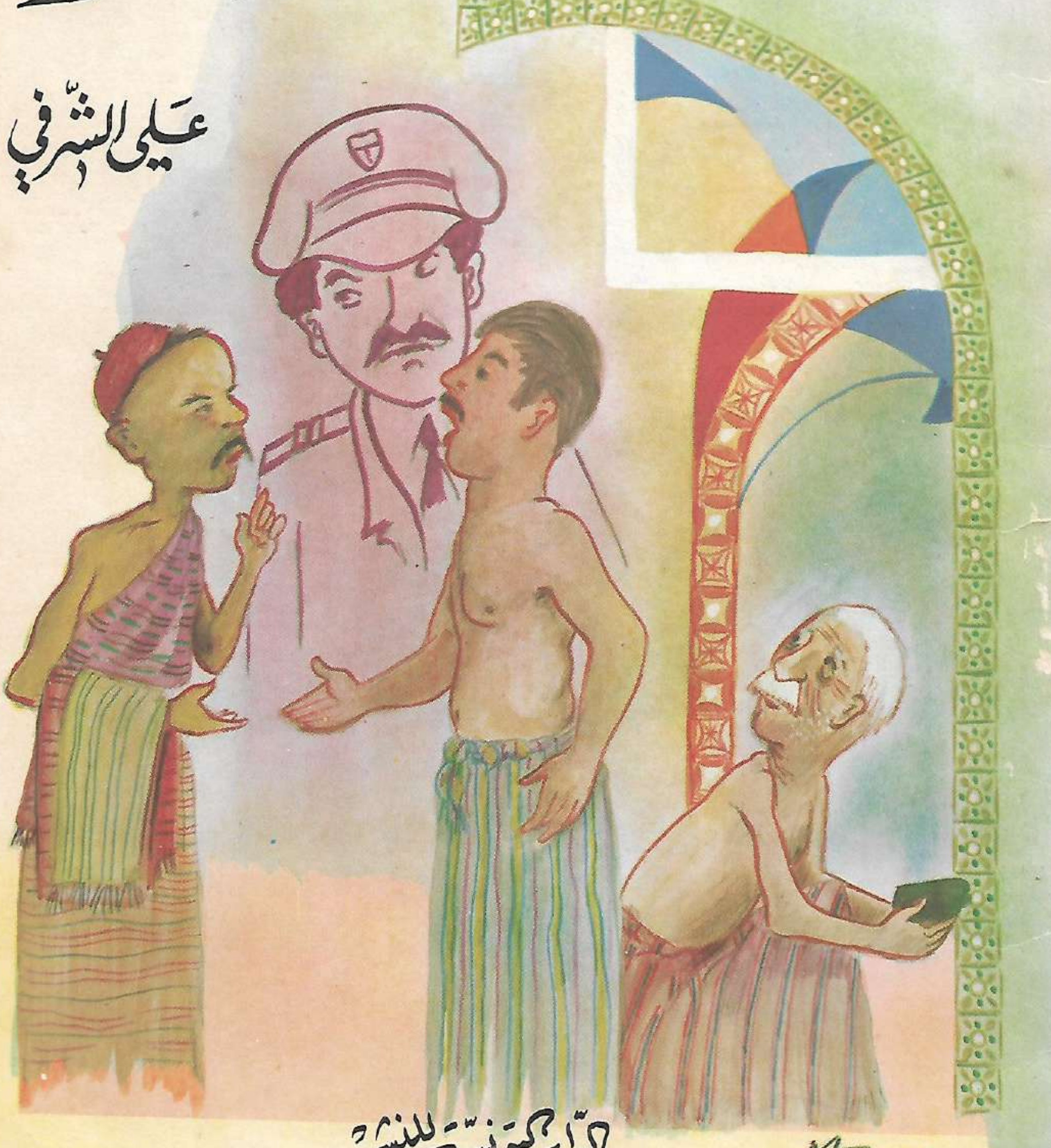
المحفظة المفقودة

علي الشرفي



الدار التونسية للنشر

علي الشرفي

ن
شر

5893

المحفظة المفقودة

الطبعة الخامسة

الدار التونسية للنشر

2780

سحب من هذا الكتاب في نشرته الخامسة 10.000 نسخة

© جميع حقوق النشرة العربية محفوظة للدار التونسية للنشر 1984

المحفظة المفقودة

قَبَضَ ٱلضَّابِطُ «سَلِيمٌ» رَاتِبَهُ ٱلشَّهْرِيَّ ، وَٱرْتَدَى زِيَّهُ ٱلمَدَنِيَّ ، وَغَادَرَ ثُكْنَتَهُ فِي إِجَازَةٍ قَصِيرَةٍ ، جَاعِلاً وَجْهَهُ شَطْرَ مَدِينَةِ «تُونِسَ» ٱلْعَاصِمَةِ

هَاهُوَ يَسِيرُ فِي طَرِيقِهِ ٱلْمُؤَدِّيَةِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ مُفَكِّرًا فِيمَا يَفْعَلُهُ بِثَرْوَتِهِ ٱلصَّغِيرَةِ ، وَكَيْفَ يَقْضِي يَوْمَهُ ؟ وَأَيْنَ ؟ وَمَعَ مَنْ ؟ وَهْوَ ٱلْغَرِيبُ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ، فَحَيَاتُهُ ٱلْعَسْكَرِيَّةُ جَعَلَتْهُ فِي عُزْلَةٍ عَنْ كُلِّ مَا يَمَسُّ بِالْمَدِينَةِ وَٱلْمَدَنِيِّينَ . ثُمَّ سَرْعَانَ مَا عَنَّ لَهُ أَنْ يَبْدَأَ يَوْمَهُ بِالدُّخُولِ إِلَى ٱلْحَمَّامِ حَيْثُ ٱلدِّفْءُ وَٱلِاسْتِحْمَامُ .

دَخَلَ ٱلضَّابِطُ حَمَّامَ « ٱلْقَشَّاشِينَ » بِتُونِس وَهُوَ حمَّامٌ مُمْتَازٌ مِنَ ٱلدَّرجَة ٱلْأُولَى ، يَقْصِدُهُ وُجَهَاءُ ٱلْقَوْم وَذَوُو ٱلْيَسَار ، وَحَجَزَ فِرَاشًا بِإِحْدَى غُرَفِه ٱلْخَارِجيَّة ، ذَاتِ ٱلسُّرُر ٱلْمَرْفُوعَة ، وَٱلنَّمَارِق ٱلْمَصْفُوفَة ، وَٱلطَّنَافس ٱلْمَبْثُوثَة ٱلْمُعَدَّة للاتِّكَاء بَعْدَ ٱلاسْتِحْمَام . خَلَعَ سَلِيمٌ ثِيَابَهُ هُنَاكَ . وَٱتَّزَر بِفُوطَةٍ مِنْ نَسِيجِ ٱلْكَتَّان ٱلأُرْجُوَانِيِّ وَدَخَلَ جَوْفَ ٱلْحَمَّام حَيْثُ ٱلْمَطَاهِرُ ٱلْمَفْرُوشَةُ بِالْفُسَيْفِسَاء ، ذَاتُ ٱلأَحْوَاضِ ٱلْمَرْمَرِيَّة ، وَٱلْجُدْرَان ٱلْمُجَلَّلَة بِالْكِلْسِ ٱلنَّاصِع ، وَٱنْبَطَحَ عَلَى دَكَّةِ ٱلتَّعْرِيق بُرْهَةً ، ثُمَّ دَلَكَ وَفَرَكَ وَمَسَدَ حَتَّى شَعُرَ بارْتِخَاءٍ فِي عَضَلاَتِه وَأَوْصَالِه وَدُوَارٍ فِي رَأْسِه فَأَسْرَعَ إِلَى ٱلْمَطْهَرَة لِيَتَطَهَّر ثُمَّ خَرَجَ إِلَى فِرَاشِه لِيَسْتَرِيح . فَمَا لَبِثَ أَنْ أَخَذَتْهُ سِنَةٌ مِنَ ٱلنَّوْم ٱللَّذِيذ وَطَفِقَتِ ٱلأَحْلاَمُ ٱلْعَذْبَةُ تُدَاعِبُ أَجْفَانَهُ ، وَبَيْنَمَا هُوَ



كَذَلِكَ يَسْبَحُ فِي بَحْرِ ٱلْأَحْـلَامِ . إِذْ بِصَاحِبِ ٱلْحَمَّامِ يَصِيحُ بِصَوْتِـهِ ٱلْأَجَشِّ : « مَنْ جَفَّ جِسْمُهُ يَلْبَسُ » فَاسْتَيْقَظَ سَلِيمٌ وَتَمَلْمَلَ فِي فِرَاشِهِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ ، لَـكِنْ غَلَبَهُ ٱلنُّعَاسُ فَعَـادَ يَغُطُّ فِي نَوْمِهِ وَمَا هِيَ إِلاَّ تَهْوِيمَةٌ حَتَّى اسْتَفَـاقَ ثَانِيَةً عَلَى قَرْعَةِ بَابٍ عَنِيفَةٍ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ قَلِيلاً ، وَتَثَاءَبَ وَتَمَطَّى ، ثُمَّ قَعَدَ ، وَأَسْنَدَ رَأْسَهُ إِلَى زَرْبِيَّةٍ عَجَمِيَّةٍ كَانَتْ تُغَلِّفُ ٱلْجِدَارَ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْـلَاهُ ، وَنَظَرَ إِلَى ٱلسَّاعَةِ ٱلدَّقَّاقَةِ ٱلْمُعَلَّقَةِ فِي صَدْرِ ٱلْغُرْفَـةِ .

ثُمَّ صَفَّقَ لِلْخَادِمِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ قَدَحَ قَهْوَةٍ وَنَارْجِيلَـةً . فَتَرَشَّفَ وَتَذَوَّقَ ، وَتَلَذَّذَ وَتَنَعَّمَ . وَمَا إِنْ شَرَعَ فِي ٱرْتِـدَاءِ ثِيَابِـهِ حَتَّى أَسْرَعَ لَهُ ٱلْخَادِمُ بِقَضِيبِ نَـدٍّ مُشْتَعِلٍ .

وَأَتَى لَـهُ صَاحِبُ ٱلْحَمَّامِ بِقَـارُورَةِ ٱلْمِسْكِ ، وَمَرَشِّ مَـاءِ ٱلْوَرْدِ . فَأَخَـذَ سَلِيمٌ يُعَطِّرُ لِحْيَتَـهُ وَيُطَيِّبُ شَعْرَهُ ، وَيُهَنْدِمُهُ أَمَامَ مِرْآةٍ مَغْمُوسَةٍ فِي ٱلْجِدَارِ عَنْ يَمِينِ ٱلدَّاخِلِ ، وَقَدْ تَضَوَّعَ مَزِيجُ ٱلرَّوَائِحِ فِي أَرْجَـاءِ ٱلْغُرْفَةِ ، وَتَنَعَّمَ بِـهِ كُلُّ مَنْ سَاعَدَهُ ٱلْحَظُّ وَكَانَ مِنْ نُـزَلَاءِ ذَاكَ ٱلْمَكَـانِ .

خَـرَجَ سَلِيمٌ مِنْ حُجْرَتِـهِ إِلَى بَهْوِ ٱلْحَمَّامِ ، وَوَقَفَ أَمَامَ ٱلْخَزِينَـةِ لِيَدْفَعَ

أُجْرَةَ ٱلحمّامِ وَٱلْمَسَّادَةِ وَثَمَنَ ٱلْمَشْرُوبَاتِ وَٱلعُطُوراتِ ، وَجَعَالَ ٱلْخَدَمِ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا وِفَادَتَهُ ، وَسَاعَدُوهُ فِي مُهِمَّتِه .

وَمَا إِنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ لِيُخْرِجَ حَافِظَةَ ٱلنُّقُودِ ، حَتَّى صَاحَ صَيْحَةَ ٱلْفَزِعِ ٱلْمَنْكُوبِ . ضَارِبًا صَدْرَهُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ : آه ، لَقَدْ سُرِقْتُ ، لَقَدْ فَقَدْتُ مَالِي ، فَقَدْتُ مِائَةَ دِينَارٍ . فَفَزِعَ ٱلْحَاضِرُونَ . وَٱحْتَشَدُوا حَوْلَهُ مُسْتَفْسِرِينَ : كَمْ ؟ وَكَيْفَ ؟ وَأَيْنَ ؟ وَمَتَى ؟ ثُمَّ أَسْرَعُوا فِي ٱلْبَحْثِ تَحْتَ ٱلْأَسِرَّةِ وَٱلنَّضَائِدِ ، وَوَرَاءَ ٱلْأَبْوَابِ، وَفَوْقَ ٱلرُّفُوفِ . وَبَلَغَ ٱلْخَبَرُ صَاحِبَ ٱلْحَمَّامِ ، وَقَدْ كَانَ فِي ٱلْمَقْهَى ٱلْمُجَاوِرِ يَتَفَرَّجُ عَلَى مُقَابَلَةِ شِطْرَنْجِيَّةٍ ذَاتِ بَالٍ . فَأَتَى فِي ٱلْحِينِ حَانِقًا غَضِبًا مُتَوَعِّدًا مُهَدِّدًا عُمَّالَهُ : « كَيْفَ يَقَعُ هٰذَا وَأَنْتُمْ تُعَدُّونَ بِٱلْعَشَرَاتِ ؟ أَلَمْ أُحَذِّرْكُمْ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ إِدْخَالِ ٱلْمَشْكُوكِ فِي ثِقَتِهِمْ ؟

يَارَبَّاهُ ؟ مَا ٱلْعَمَلُ ؟ وَكَيْفَ ٱلتَّخَلُّصُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْوَرْطَةِ خُصُوصًا مَعَ ضَابِطٍ مِنَ ٱلْجَيْشِ . إِنَّهَا وَصْمَةٌ مُشِينَةٌ تُسَوِّدُ جَبِينِي . وَتُسْقِطُ سُمْعَةَ مَحَلِّي ٱلْمُشْتَهِرِ بِالأَمَانَةِ بَيْنَ وُجَهَاءِ ٱلْمَدِينَةِ وَذَوِي ٱلْيَسَارِ » ثُمَّ أَطْرَقَ صَاحِبُ ٱلْحَمَّامِ قَلِيلاً وَرَفَعَ رَأْسَهُ قَائِلاً : « وَلَكِنْ سَنَتَّخِذُ ٱلتَّدَابِيرَ ٱلَّتِي تُمَكِّنُنَا مِنْ إِدْرَاكِ مَا فُقِدَ » ثُمَّ أَمَرَ بِإِغْلاقِ ٱلْبَابِ بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنَ ٱلزَّبَائِنِ مُنْذُ أَنْ دَخَلَ ٱلضَّابِطُ ، وَبِتَفْتِيشِ كُلِّ مُسْتَحِمٍّ عِنْدَ خُرُوجِهِ حَتَّى يَقَعَ ٱلْعُثُورُ عَلَى ٱلْمَفْقُودِ .



وَلَـكِنْ كَيْفَ يَقَعُ تَطْبِيقُ ذَلِكَ وَجُلُّ زَبَائِنِهِ مِنْ عِلْيَةِ ٱلْقَوْمِ ؟ أَيَجْرُؤُ عَلَى فَضِيلَةِ مُفْتِي ٱلْبِـلَادِ وَيُفَتِّشُ لَهُ حَقِيبَتَهُ ؟ أَمْ يَتَجَاسَرُ عَلَى أَحَدِ أُمَنَاءِ ٱلْمَدِينَةِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ حَافِظَةَ نُقُودِهِ ؟ كَـلاَّ .

وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ فِي أَخْذٍ وَرَدٍّ وَٱضْطِرَابٍ إِذْ بِٱلشَّيْخِ أَحْمَدَ ٱلَّذِي بَلَغَهُ نَبَأُ ٱلْحَادِثِ وَهُوَ بِٱلدَّاخِلِ يَسْتَحِمُّ . يَخْرُجُ بِدَافِعِ ٱلْفُضُولِ وَحُبِّ ٱلاطِّـلَاعِ لِيَسْتَنْبِئَ عَنْ ظُرُوفِ ٱلْحَادِثَةِ . وَكَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا . فَأُعْلِمَ أَنَّ ضَابِطًا مِنَ ٱلْجَيْشِ سُرِقَتْ مِنْ جَيْبِهِ مِائَةُ دِينَـارٍ ، وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْحَمَّامِ قَرَّرَ إِجْرَاءَ تَفْتِيشٍ دَقِيقٍ عَلَى ٱلْحَاضِرِينَ حَتَّى عَلَى عُمَّالِهِ وَمُسَاعِدِيهِ .

مُصَادَفَةٌ غَرِيبَـةٌ

وَمِنْ غَرَائِبِ ٱلْمُصَادَفَةِ ، وَسُوءِ طَالِعِ ٱلشَّيْخِ أَحْمَدَ ، أَنْ كَانَ يَحْمِلُ نَفْسَ ذَلِكَ ٱلْمَبْلَغِ فِي حَافِظَةِ نُقُودِهِ ، كَانَ تَسَلَّمَـهُ فِي صَبَاحِ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ مِنْ أَرْمَلَةٍ عَجُوزٍ أَتَتْهُ مُسْتَعْطِفَةً ، رَاغِبَةً مِنْ مُرُوءَتِهِ أَنْ يُجَهِّزَ ٱبْنَتَهَـا بِلَوَازِمِ ٱلزِّفَافِ مِنْ حُلِيٍّ وَثِيَابٍ ، وَحِنَّاءٍ وَشُمُوعٍ . لِمَا تَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ ٱلْمَهَارَةِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْبِضَاعَةِ ، وَٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْمُسَاوَمَةِ . فَحَامَتْ حَوْلَهُ ٱلْهَوَاجِسُ ، وَٱعْتَرَاهُ ٱلذُّهُولُ ، خَوْفًا مِنْ إِلْصَاقِ ٱلتُّهْمَةِ بِهِ ، فَتُمَسُّ كَرَامَتُهُ ، وَيُدَنَّسُ عِرْضُهُ، رَبَّاهُ كَيْفَ يَقَعُ دَرْءُ هَذِهِ ٱلشُّبْهَـةِ ؟

وَتَذَكَّرَ إِذْذَاكَ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ ٱلْعَرَبِيِّ :

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبًا

فَمَا اعْتِذَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلاَ ؟

وَأَخَذَ يُرَدِّدُ فِي نَفْسِهِ هَذَا ٱلْعَجُزَ :

فَمَا ٱعْتِذَارُكَ ..... ، فَمَا ٱعْتِذَارُكَ ..... ، حَتَّى هَدَاهُ تَفْكِيرُهُ إِلَى أَنْ يَقْتَرِبَ مِنَ ٱلْضَّابِطِ وَيَسْأَلَهُ :

وَأَيْنَ كُنْتَ وَاضِعًا مَالَكَ ٱلْمَفْقُودَ ؟ »

فِي حَافِظَةِ نُقُودٍ جِلْدِيَّةٍ ، مُطَرَّزَةٍ بِالْحَرِيرِ ٱلْأَحْمَرِ ٱشْتَرَيْتُهَا مُنْذُ شَهْرَيْنِ مِنْ سُوقِ ٱلسَّرَّاجِينَ وَضَعْتُهَا فِي جَيْبِ سُتْرَتِي هذَا . . . عِنْدَ خُرُوجِي مِنَ ٱلْثُكْنَةِ .

**

وَمِنْ أَغْرَبِ ٱلْمُصَادَفَاتِ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ ٱلْأَوْصَافُ مُطَابِقَةً تَمَامَ ٱلْمُطَابَقَةِ لِحَافِظَةِ نُقُودِ ٱلشَّيْخِ أَحْمَدَ فَٱشْتَدَّ هَمُّهُ ، وَكَثُرَ غَمُّهُ ، وَٱزْدَادَتْ حَيْرَتُهُ ، وَسُدَّتْ أَمَامَهُ ٱلسُّبُلُ ، وَضَاقَتْ فِي وَجْهِهِ ٱلْحَيَاةُ ، وَأَصْبَحَ يَعْتَقِدُ أَنْ لاَ مَنَاصَ مِنْ هَذِهِ ٱلتُّهْمَةِ ٱلَّتِي سَتَلْتَصِقُ بِهِ بَاطِلاً ، فَالْقَرَائِنُ قَائِمَةٌ ضِدَّهُ بِلاَ رَيْبٍ .

فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ إِلاَّ أَنِ اقْتَرَبَ مِنَ الضَّابِطِ مُضَحِّيًا بِالنَّفِيسِ حِفْظًا لِلْكَرَامَةِ ، وَصِيَانَةً لِلْعِرْضِ وَالشَّرَفِ الْعَائِلِيِّ ، وَقَالَ لَهُ بِلَهْجَةِ الْمُبَشِّرِ :

« هَاهِيَ دَرَاهِمُكُمْ ، قَدْ وَجَدْتُهَا مُلْقَاةً عَلَى الأَرْضِ قُرْبَ فِرَاشِي ، وَقَدْ سَأَلْتُكَ عَنْ أَوْصَافِهَا لأَتَحَقَّقَ هَلْ هِيَ ضَالَّتُكَ بِنَفْسِهَا ؟ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى صِرِّ أَلْبِسَتِهِ وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ حَافِظَةَ نُقُودِهِ ، وَسَلَّمَهَا لِلضَّابِطِ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ : « فِي الْمَالِ وَلاَ فِي الْعِرْضِ » مُتَسَلِّيًا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اتَّقُوا الشُّبُهَاتِ ، مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ » .

فَاسْتَبْشَرَ الضَّابِطُ ، وَطَفَرَتْ دُمُوعُ الْفَرَحِ مِنْ عَيْنَيْهِ وَاسْتَبْشَرَ مَعَهُ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ ، وَأَشْرَقَتْ وُجُوهُهُمْ بَعْدَ اكْفِهْرَارِهَا ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بَعْدَ انْزِعَاجِهَا . أَخَذَ الضَّابِطُ مَالَهُ ، وَخَرَجَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَاصِمَةِ مُقَضِّيًا يَوْمَهُ فِي اللَّهْوِ وَالْمَرَحِ بَيْنَ مَقَاصِفِهَا وَمَلاَهِيهَا .

وَلَمَّا أَذِنَتِ الشَّمْسُ بِالْمَغِيبِ عَادَ إِلَى ثُكْنَتِهِ مُطْمَئِنَّ الْبَالِ ، مُرْتَاحَ الضَّمِيرِ غَيْرَ مُفَكِّرٍ فِي الشَّيْخِ أَحْمَدَ . فَغَايَةُ مَا يَحْمِلُ عَنْهُ هُوَ أَنَّهُ رَجُلٌ أَمِينٌ .

أَمَّا ٱلشَّيْخُ أَحْمَدُ فَاللهُ أَعْلَمُ كَيْفَ قَضَى يَوْمَهُ ؟

فَإِنِ انْزَعَجَ وَفَقَدَ رُشْدَهُ خَوْفًا مِنْ تَوَقُّعِ إِلْحَاقِ تُهْمَةٍ بِهِ ، فَكَيْفَ لَوْ قَامَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ ٱلْأَرْمَلَةُ تُطَالِبُهُ بِمَا سَلَّمَتْ لَهُ لِتَجْهِيزِ ابْنَتِهَا؟ وَهُوَ لَيْسَ مِنَ ٱلْمُوسِرِينَ حَتَّى يَسْتَطِيعَ تَسْدِيدَ ذَلِكَ ٱلْمَبْلَغِ مِنْ مَالِهِ ٱلْخَاصِّ.



... وَفِي صَبَاحِ ٱلْغَدِ اسْتَيْقَظَ ٱلضَّابِطُ كَعَادَتِهِ لِيَسْتَأْنِفَ نَشَاطَهُ ٱلْعَسْكَرِيَّ، وَبَعْدَ تَنَاوُلِ فَطُورِ ٱلصَّبَاحِ فِي مَشْرَبِ ٱلثُّكْنَةِ ، عَادَ إِلَى غُرْفَتِهِ ، وَوَقَفَ أَمَامَ ٱلْمِرْآةِ يُسَوِّي شَعْرَهُ ، وَيُعَطِّرُ وَجْهَهُ ، وَيُصْلِحُ يَاقَتَهُ ، ثُمَّ ٱرْتَدَى بِذْلَتَهُ ٱلْعَسْكَرِيَّةَ ، ذَاتَ ٱلْأَزْرَارِ ٱلنُّحَاسِيَّةِ ٱللَّمَّاعَةِ ، وَوَشَّى صَدْرَهُ بِنَيَاشِينِهِ ٱلذَّهَبِيَّةِ . وَمَا إِنِ اجْتَازَ عَتَبَةَ ٱلْبَيْتِ حَتَّى تَذَكَّرَ حَافِظَةَ ٱلنُّقُودِ ٱلَّتِي تَرَكَهَا ٱلْبَارِحَةَ فِي سُتْرَتِهِ ٱلْمَدَنِيَّةِ فَعَادَ أَدْرَاجَهُ ، وَجَنَحَ إِلَى ٱلْخِزَانَةِ ، وَأَخَذَهَا مِنْهَا . ثُمَّ أَخَذَ يُحَاوِلُ إِدْخَالَهَا فِي جَيْبِهِ . فَإِذَا بِشَيْءٍ يَعْتَرِضُ سَبِيلَهَا وَيَمْنَعُهَا

مِنَ ٱلدُّخُـول .

« آهْ ـ مَا هَذَا ؟ ... كُنَّشُ مُذَكِّرَاتِي ؟ لاَ ... عُلْبَـةُ سَجَائِرِي ؟ ـ لاَ أَيْضًـا »

فَأَخْرَجَهُ ، فَمَا أَشَدَّ دَهْشَتَهُ عِنْدَمَا وَجَدَهُ حَافِظَـةَ نُقُودٍ ثَانِيَـةً .

فَأَمْسَكَ إِحْدَاهُمَا بِيُمْنَاهُ ، وَٱلْأُخْرَى بِيُسْرَاهُ وَأَخَذَ يُقَلِّبُهُمَـا ، وَيَتَفَحَّصُ أَجْزَاءَهُمَا ، هَامِسًـا ، مُهَمْهِمًا :

« كَيْفَ؟ أَلِي اثْنَتَان مُتَشَابِهَتَانِ؟

لاَ ، بَلْ وَاحِدَةٌ .

إِذَنْ ، فَمِنْ أَيْنَ أَتَتْ هَذِهِ ؟ »

وَفَتَحَ إِحْدَاهُمَا ، فَإِذَا بِهَا ٱلْمَائَةُ دِينَار كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ فَازْدَادَ



عَلَيْهِ ٱلْإِشْكَالُ ، وَعَظُمَتْ حَيْرَتُهُ وَأَخَذَ يُهَاجِسُ نَفْسَهُ .

« مِنْ أَيْنَ أَنْفَقْتُ ـ أَمْسِ ـ إِذًا ، وَقَدْ أَسْرَفْتُ ؟ حَظٌّ سَعِيدٌ ، شَيْءٌ سَارٌّ لَكِنْ يَنْبَغِي ٱلْوُقُوفُ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهِ »

وَفَتَحَ ٱلثَّانِيَةَ فَلَمْ يَجِدْ بِهَا إِلاَّ خَمْسِينَ دِينَارًا فَأَطْرَقَ بُرْهَةً ، كَأَنَّهُ يَتَذَكَّرُ مَجْمُوعَ مَا أَنْفَقَهُ ٱلْبَارِحَةَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُصَرِّحًا بِدُونِ تَلَجْلُجٍ .

« مِنْ هَذِهِ أَنْفَقْتُ بِلاَ رَيْبٍ ، بَقِيَ عَلَيَّ ٱلآنَ مَعْرِفَةُ سِرِّ وُجُودِ ٱلْأُخْرَى عِنْدِي »

وَأَسْرَعَ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَأَسْنَدَ رَأْسَهُ إِلَى كَفَّيْهِ ، سَابِحاً فِي بَحْرٍ مِنَ ٱلتَّذَكُّرِ وَٱلتَّفْكِيرِ ، مُسْتَعْرِضًا أَمَامَهُ شَرِيطَ ٱلْحَوَادِثِ ٱلتِي مَرَّتْ بِهِ أَوْ قَامَ بِهَا مُنْذُ أَمَدٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ حَتَّى بَلَغَ بِهِ ٱلْمَطَافُ إِلَى مَشْهَدِ حَمَّامِ ٱلْقَشَّاشِينَ ، وَحَافِظَةِ نُقُودِهِ ٱلْمَفْقُودَةِ ، وَذَاكَ ٱلشَّيْخِ ٱلذِي عَثَرَ عَلَيْهَا فَمَا زَالَ طَيْفُهُ مُرْتَسِمًا فِي مُخَيِّلَتِهِ بِرَأْسِهِ ٱلْمُشْتَعِلِ شَيْبًا ، وَعُثْنُونِهِ ٱلْكَثِّ ، وَهُوَ مُنْحَنٍ يُخْرِجُ حَافِظَةَ ٱلنُّقُودِ مِنْ صُرَّهِ لِيُسَلِّمَهَا إِلَيْهِ .

فَتَوَقَّفَ أَمَامَ هَذَا ٱلْمَشْهَدِ قَلِيلاً مُسْتَجْلِيًا مِنْهُ ٱلْحَقِيقَةَ ثُمَّ قَالَ .

« فَالذِي لاَ أَرْتَابُ فِيهِ هُوَ أَنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ حَافِظَةَ نُقُودٍ وَاحِدَةً ؛ فَيَنْبَغِي تَمْيِيزُهَا مِنْ بَيْنِ هَاتَيْنِ » قَالَ هَذَا ـ وَأَخَذَ تِلْكَ ٱلتِي أَلْفَاهَا بِالْبَذْلَةِ ٱلْعَسْكَرِيَّةِ وَطَفِقَ يُفَتِّشُ جُيُوبَهَا ، وَيَتَلَمَّسُ مُخَبَّآتِهَا عَسَاهُ يَجِدُ أَثَرًا أَوْ سِمَةً

ترفع تردده ، وتزيل شكه حتى عثر على رسالة تحمل اسمه . كان تسلمها أول أمس من أسرته بالقيروان : فانزاح عنه الشك وانجلى الريب . وأصبح يعتقد أن تلك هي حافظة نقوده بنفسها قد نسيها صبيحة يوم عطلته بجيب سترته العسكرية . وأن التي تسلمها من الشيخ في الحمام . وأنفق منها يوم أمس بإسراف ، ليست له .

وعليه ، فإما أن يكون ادعاء الشيخ حقيقة واقعة . وأن حافظة النقود سقطت لأحد الزبن في الحمام فالتقطها الشيخ . وهذا بعيد . فلو كان الأمر كذلك لسلمها الشيخ في حينه لصاحب الحمام .

وإما أن يكون ذلك الادعاء باطلا مقنعا . وأن حافظة النقود للشيخ نفسه وقد ضحى بها ، إما صيانة لعرضه ، وقد شاءت الأقدار – وإن شئت – المصادفات الغريبة أن تكون حافظة نقوده متفقة كما وكيفا مع التي للضابط ، أو شفقة ورحمة بالضابط لما أدرك على وجهه شدة التأثر والأسى من جراء ما فقد ، وقد شاء الشيخ أن يستر مبرته هذه بذاك الادعاء ، حتى لا يقال عنه : إنه أغاث فلانا أو تصدق على فلان . مثلما كان يفعل المسلمون الأخيار كلما أقبلوا على مبرة أو حسنة لوجه الله .

هنا بدأ صراع عنيف بين نفس تأمر بالسوء ، تحلل المحظور وترغب فيه ، تزين المكروه وتحببه ، وبين صوت ضمير ينبعث من أعماق القلب

مُذَكِّرًا بِأَقْدَسِ وَاجِبٍ مُحَذِّرًا مِنَ ٱلانْحِرَافِ عَنِ ٱلْجَادَّةِ وَٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ .

هَكَذَا قَضَى ٱلضَّابِطُ سَلِيمٌ أُسْبُوعَهُ مُتَرَدِّدًا مُتَلَجْلِجًا « أَيَضُمُّ ذَلِكَ ٱلْمِقْدَارَ ٱلْهَائِلَ مِنَ ٱلْمَالِ لِحِسَابِهِ وَيَسْكُتُ ، خُصُوصًا وَأَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ سَلَّمَ لَهُ ٱلْمَالَ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ ، وَٱعْتَرَفَ أَنَّهُ وَجَدَهُ مُلْقًى قُرْبَ فِرَاشِهِ . أَمْ يَتَّصِلُ بِذَاكَ ٱلشَّيْخِ ، وَيُعْلِمُهُ أَنَّ تِلْكَ ٱللُّقْطَةَ لَيْسَتْ لَهُ ، وَأَنَّهُ وَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي غُرْفَتِهِ بِالثُّكْنَةِ ؟ » .

وَأَخِيرًا ، بَعْدَ إِقْدَامٍ وَإِحْجَامٍ ، وَكَرٍّ وَفَرٍّ ، تَغَلَّبَتْ قُوَى ٱلْخَيْرِ عَلَى قُوَى ٱلشَّرِّ ، وَٱسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى إِرْجَاعِ ٱلْأَمَانَةِ لِأَهْلِهَا . وَبِذَلِكَ يُبْرِىءُ ذِمَّتَهُ وَيُرْضِي ضَمِيرَهُ ، وَيُطَهِّرُ عِرْضَهُ ، وَيُشَرِّفُ أُمَّتَهُ وَمِهْنَتَهُ .

ظَلَّ ٱلضَّابِطُ سَلِيمٌ يَتَرَقَّبُ إِجَازَتَهُ ٱلْأُسْبُوعِيَّةَ بِفَارِغِ صَبْرٍ وَعَلَى أَحَرَّ مِنَ ٱلْجَمْرِ . وَمَا إِنْ حَلَّ يَوْمُ ٱلْأَحَدِ ، وَرُخِّصَ لَهُ بِمُغَادَرَةِ ٱلثُّكْنَةِ ، حَتَّى بَادَرَ بِالاتِّصَالِ بِصَاحِبِ ٱلْحَمَّامِ لِيُعَرِّفَهُ بِمَقَرِّ ذَلِكَ ٱلشَّيْخِ . فَأُعْلِمَ هُنَاكَ أَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ مَسَاءَ ٱلْحَادِثَةِ ، فَبُهِتَ وَذُعِرَ ، وَحَزِنَ وَٱغْتَمَّ حَتَّى ظَنَّ ٱلْبَعْضُ أَنَّ بَيْنَهُمَا صَدَاقَةً مَتِينَةً ، أَوْ صِلَةَ رَحِمٍ . وَٱعْتَقَدَ ٱلضَّابِطُ أَنَّ مَوْتَهُ ٱلْفُجَائِيَّ – لاَ مَحَالَةَ – مِنْ أَثَرِ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي انْتَابَتْهُ ، وَٱلنَّكْبَةِ ٱلَّتِي حَلَّتْ بِهِ . ثُمَّ حَكَى لِلْحَاضِرِينَ قِصَّتَهُ ، وَكَيْفَ أَنَّ نِسْيَانَهُ لِحَافِظَةِ نُقُودِهِ كَانَ كَارِثَةً وَبَلِيَّةً عَلَى ٱلشَّيْخِ أَحْمَدَ . فَتَأَثَّرَ ٱلْحَاضِرُونَ ، وَحَوْقَلُوا ، وَدَعَوْا

لِلشَّيْخِ بِالرَّحْمَةِ وَقَدْ رَأَوْا فِيهِ ٱلْإِبَاءَ وَعُلُوَّ ٱلْهِمَّةِ ، وَٱلحِرْصَ عَلَى سَلاَمَةِ ٱلْعِرْضِ . كَمَا قَدَّرُوا فِي ٱلضَّابِطِ ثِقَتَهُ وَأَمَانَتَهُ ، فَلَوْلاَهُمَا مَا حَافَظَ ٱلضَّابِطُ عَلَى مَالِ ٱلْغَيْرِ ، وَلاَ سَعَى لِلاتِّصَالِ بِالشَّيْخِ ، ثُمَّ أَرْسَلُوا مَعَهُ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى أُسْرَةِ ٱلْفَقِيدِ .

فِي بَيْتِ ٱلشَّيْخِ أَحْمَدَ

وَمَا إِنْ أَشْرَفَ ٱلضَّابِطُ وَدَلِيلُهُ عَلَى حَيِّ أَحْمَدَ حَتَّى رَأَيَا حَشْدًا عَظِيمًا مُتَجَمْهِرًا أَمَامَ مَسْكَنِ ٱلْفَقِيدِ ، بِوَسَطِهِ امْرَأَةٌ كَالِحَةُ ٱلْوَجْهِ ، مُقَطَّبَةُ ٱلْأَسَارِيرِ ، تَنِمُّ ثِيَابُهَا عَنِ ٱلتَّرَمُّلِ وَٱلْفَقْرِ ، ذَاتُ لِسَانٍ ذَلِقٍ ، تَسْتَطِيعُ بِفَضْلِهِ أَنْ تَسْتَغْنِيَ فِي مَجَالِ ٱلدِّفَاعِ عَنْ أَكْبَرِ ٱلْمُحَامِينَ ، وَفِي مَيْدَانِ ٱلتَّأْثِيرِ وَٱلْإِقْنَاعِ تَفُوقُ أَمْهَرَ ٱلْخُطَبَاءِ ٱلْمُصْقَعِينَ . فَوَقَفَ سَلِيمٌ مَعَ ٱلْمُتَجَمْهِرِينَ دُونَ أَنْ يُبْدِيَ ٱلْغَرَضَ ٱلذِي أَتَى مِنْ أَجْلِهِ . وَٱلْمَرْأَةُ تُبَرْبِرُ وَتُزَمْجِرُ مُدَّعِيَةً أَنَّهَا سَلَّمَتْ لِلْمَرْحُومِ مِائَةَ دِينَارٍ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِيَوْمٍ ، عَلَى أَنْ يُجَهِّزَ ٱبْنَتَهَا بِلَوَازِمِ ٱلْعُرْسِ ، وَأَهْلُ ٱلْمَيِّتِ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ ذَلِكَ تَبَرُّؤَ ٱلذِّئْبِ مِنْ دَمِ ابْنِ يَعْقُوبَ ، مُحَاوِلِينَ إِقْنَاعَهَا ـ بِشَتَّى ٱلْوَسَائِلِ ـ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا أَثَرًا لِهَذَا ٱلْمِقْدَارِ فِي مُخَلَّفَاتِ فَقِيدِهِمْ . لَكِنْ بِدُونِ جَدْوَى. فَالْمَرْأَةُ مَا ٱنْفَكَّتْ تُهَاجِمُ وَتَتَطَاوَلُ عَلَى آلِ أَحْمَدَ نَاعِتَةً إِيَّاهُمْ بِكُلِّ مَا يَشِينُ . وَكَانَتْ مِنْ حِينٍ لآخَرَ تَلْتَفِتُ إِلَى أُولَئِكَ ٱلْفُضُولِيِّينَ ـ ٱلذِينَ حَوْلَهَا كَأَنَّهَا تَسْتَعْطِفُ ضَمَائِرَهُمْ لِتَشُدَّ بِهِمْ أَزْرَهَا إِنِ اقْتَضَى ٱلْحَالُ قَائِلَةً « أَيَجْدُرُ بِمَنْ



يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْبًا ذَا ذَرَّةٍ مِنَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ أَنْ يَأْكُلَ مَالَ يَتِيمَةٍ - مِثْل بُنَيَّتِي - بَاطِلاً ؟ ..... إِنَّ بُنَيَّتِي ٱلْمِسْكِينَةَ قَضَتْ طُفُولَتَهَا ، وَجُزْءًا مِنْ شَبَابِهَا ، فِي جَمْعِ هَذَا ٱلْمِقْدَارِ ، مِنَ ٱلْخِيَاطَةِ وَٱلتَّطْرِيزِ لِتُزَفَّ بِجِهَازٍ مُحْتَرَمٍ لاَئِقٍ . كَيْفَ ٱلْعَمَلُ ؟ وَلَمْ يَبْقَ لِمَوْعِدِ ٱلزِّفَافِ إِلاَّ بِضْعَةُ أَيَّامٍ .

وَلَمَّا كَثُرَ بَيْنَهُمَا ٱللَّجَاجُ ، وَٱحْتَدَمَ ٱلْخِصَامُ وَأَوْشَكَ ٱلْأَمْرُ أَنْ يَؤُولَ إِلَى أَسْوَأِ حَالٍ ، شَقَّ ٱلضَّابِطُ سَلِيمٌ ٱلزِّحَامَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلْمَرْأَةِ قَائِلاً :

- أَتَسْمَحِينَ - يَا خَالَةُ - أَنْ أَدْخُلَ حَكَمًا فِي هَذَا ٱلنِّزَاعِ وَأُسَوِّيَ ٱلْمُشْكِلَ بَيْنَكُمَا بِٱلْحُسْنَى ، وَبِٱلطَّرِيقَةِ ٱلَّتِي يَتَتَبَّعُهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلشَّرْعِيُّ ؟

- تَفَضَّلْ ، إِنَّنِي أُرَحِّبُ بِكُلِّ وَسِيطٍ ، خُصُوصًا إِنْ كَانَ مِنْ ذَوِي ٱلذَّكَاءِ وَٱلْفَضْلِ وَٱلِاسْتِقَامَةِ حَتَّى لاَ تَنْطَلِيَ عَلَيْهِ حِيَلُ ٱلْأَفَّاكِينَ ٱلآثِمِينَ وَلاَ يَجِدُ ٱلْهَوَى إِلَى نَفْسِهِ سَبِيلاً .

- إِنَّ جَمِيعَ ٱلْقَوَانِينِ - يَاخَالَةُ - ٱلسَّمَاوِيَّةَ مِنْهَا وَٱلْوَضْعِيَّةَ ، كَادَتْ أَنْ تَتَّفِقَ عَلَى مُطَالَبَةِ ٱلْمُدَّعِي بِبَيِّنَةٍ يُثْبِتُ بِهَا دَعْوَاهُ ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ ، وَجَّهَتْ عَلَى ٱلْمُدَّعَى عَلَيْهِ يَمِينًا يُبْرِىءُ بِهَا سَاحَتَهُ .

وَبِمَا أَنَّكِ مُدَّعِيَةٌ فِي هَذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ ، أَتَسْتَطِيعِينَ إِثْبَاتَ دَعْوَاكِ ؟

- إِثْبَاتَ دَعْوَايَ ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟

ـ بِأَنْ تَكُونَ بِيَدِكَ حُجَّةٌ كِتَابِيَّةٌ بِخَطِّ ٱلْفَقِيدِ تُثْبِتُ أَنَّهُ تَسَلَّمَ مِنْكَ هَذَا ٱلْمِقْدَارَ

ـ خَطِّ ٱلْفَقِيدِ ؟ خَطِّ يَدِ ٱلسَّيِّدِ أَحْمَدَ ؟ يَظْهَرُ لِي يَا وَلَدِي أَنَّكَ أَجْنَبِيٌّ عَنْ تُونِسَ . فَالشَّيْخُ أَحْمَدُ بَرَّدَ اللهُ ثَرَاهُ ، وَنَعَّمَ رُوحَهُ بِخَيْرَاتِ الْجَنَّةِ . لَيْسَ مِنَ ٱلذِينَ يُطَالِبُونَ بِتَسْلِيمِ حُجَّةِ إِثْبَاتٍ ـ كُلَّمَا أَخَذُوا مَا لِلْغَيْرِ ـ خَشْيَةَ إِنْكَارِهِمْ ، فَقَدْ اشْتَهَرَ بَيْنَ جَمِيعِ ٱلسُّكَّانِ : عَلِيِّهِمْ وَحَقِيرِهِمْ ، كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ ، بِالْأَمَانَةِ وَٱلصِّدْقِ ، وَٱلْوَرَعِ ، وَٱلْاِسْتِقَامَةِ حَتى أَصْبَحَتْ مَنَاقِبُهُ يَتَحَدَّثُ بِهَا ٱلرُّكْبَانُ ، وَخِصَالُهُ .....»

فَقَاطَعَهَا سَلِيمٌ :

ـ كَفَى ، كَفَى ، دَعِينَا مِنْ هَذَا . أَيُمْكِنُكِ وَصْفُ وَدِيعَتِكِ وَبَيَانُ نَوْعِهَا ؟

وَإِلاَّ أُوَجِّهُ ٱلْيَمِينَ عَلَى ٱلْمُدَّعَى عَلَيْهِمْ وَأُبْرِىءُ ذِمَّتَهُمْ .

ـ إِنَّ ذَلِكَ فِي غَايَةِ ٱلْيُسْرِ ، لَكِن عِنْدَ ابْنَتِي

فَهِيَ ٱلَّتِي جَمَعَتْهَا فِلْسًا فِلْسًا ، وَعَدَّتْهَا ٱلْمَرَّاتِ ٱلْعَدِيدَةَ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ .

ـ أَحْضِرِيهَا لَنَا ، عَلَى أَنْ نَلْتَقِيَ فِي هَذَا ٱلْمَكَانِ بَعْدَ صَلاَةِ ٱلْعَصْرِ فَإِلَى ٱللِّقَاءِ .

اغْتَنَمَ ٱلْضَّابِطُ غِيَابَ ٱلْعَجُوزِ ، وَٱخْتَلَى بِوَرَثَةِ ٱلْفَقِيدِ ، وَقَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ أَمَانَةَ أَبِيهِمْ لَكِنَّ كَبِيرَهُمْ - وَكَانَ شَهْمًا - رَفَضَ قَبُولَهَا فِي إِبَاءٍ وَأَنَفَةٍ خَشْيَةَ أَنْ لاَ تُصَدِّقَهُمْ ٱلْعَجُوزُ ، وَتَتَّهِمَهُمْ بِإِخْفَائِهَا فِي بَادِىءِ ٱلْأَمْرِ بَلْ عَارَضَ حَتَّى فِي تَسْلِيمِهَا مِنْ طَرَفِ ٱلْحَكَمِ ، إِذْ رُبَّمَا تَتَّهِمُهُ بِالتَّوَاطُىءِ مَعَهُمْ ، فَيَجِدُ لِسَانُهَا ٱلْحَادُّ مَجَالاً لِلْحَدِيثِ وَٱلثَّرْثَرَةِ فِي نَوَادِي ٱلنِّسَاءِ وَٱلْمُجْتَمَعَاتِ .

وَلَمْ تَتَرَدَّدْ بَقِيَّةُ ٱلْأُسْرَةِ فِي تَأْيِيدِ مَوْقِفِ كَبِيرِهَا وَمُسَانَدَتِهِ ، فَكُلُّهُمْ يَغَارُونَ عَلَى سُمْعَةِ ٱلْعَائِلَةِ وَشَرَفِهَا .

وَبَعْدَ تَشَاوُرٍ وَتَفَاوُضٍ ، وَتَفْكِيرٍ وَتَدْبِيرٍ ، اسْتَقَرَّ رَأْيُ ٱلْجَمِيعِ عَلَى أَنْ يُرْجَعَ ٱلْمَالُ لِصَاحِبِ ٱلْحَمَّامِ ، وَيُحْكَى لَهُ مَا حَدَثَ ، عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى صَاحِبُ ٱلْحَمَّامِ نَفْسُهُ إِيصَالَهُ حِينَمَا يَكُونُونَ مُجْتَمِعِينَ مَعَ ٱلْعَجُوزِ وَٱبْنَتِهَا .

وَبَعْدَ أَنْ قُضِيَتْ صَلاَةُ ٱلْعَصْرِ ، وَٱنْتَشَرَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِقَضَاءِ شُؤُونِهِمْ ، اجْتَمَعَ ٱلْمَعْنِيُّونَ فِي بَهْوِ مَنْزِلِ أَحْمَدَ ، حَوْلَ مِنْضَدَةٍ وَٱحْتَلَّ ٱلْحَكَمُ سَلِيمٌ صَدْرَ ٱلْمَجْلِسِ ، وَأَمَامَهُ ٱلْعَجُوزُ وَٱبْنَتُهَا ، وَعَلَى جَانِبَيْهِ أُسْرَةُ ٱلْفَقِيدِ .

شَرَعَ ٱلْحَكَمُ فِي ٱسْتِفْسَارِ ٱلبِنْتِ عَنْ مِقْدَارِ ٱلْمَالِ ، وَصِفَتِهِ وَٱلْغَرَضِ

مِنْ تَسْلِيمِهِ ؟ مُتَظَاهِرًا بِالْحِيطَةِ وَالتَّدْقِيقِ وَعَدَمِ الْإِسْرَاعِ ، وَالْبِنْتُ تُجِيبُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكُلِّ رَزَانَةٍ وَتَيَقُّنٍ ، لاَ اضْطِرَابَ وَلاَ تَلَعْثُمَ وَلاَ انْزِعَاجَ .

أَمَّا بَقِيَّةُ الْحَاضِرِينَ فَهُمْ صَامِتُونَ - كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ - يَنْتَظِرُونَ : أُسْرَةٌ تَنْتَظِرُ بَرَاءَةَ عِرْضِهَا ، وَعَجُوزٌ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ مَالِهَا .



وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، إِذْ بِطَرْقَةٍ عَلَى الْبَابِ تُرْهِفُ الآذَانَ فَأَسْرَعَ الْخَادِمُ لِيَرَى مَنِ الطَّارِقُ ؟ ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ:

- « سَيِّدِي إِنَّ الْعَمَّ يُوسُفَ الْحَمَّامِيَّ يَرْجُو الدُّخُولَ ».

- «أَدْخِلْهُ لَعَلَّهُ أَتَى مُعَزِّيًا» أَجَابَ كَبِيرُ الْأُسْرَةِ.

دَخَلَ الْحَمَّامِيُّ مُتَّئِدَ الْخُطَى، مُنْقَبِضَ الْوَجْهِ وَبَادَرَ بِالسَّلاَمِ وَدَعَا لِأَهْلِ الْمَيِّتِ بِالصَّبْرِ وَالسُّلْوَانِ ، ثُمَّ أَخَذَ مَقْعَدَهُ بَيْنَ الْحَاضِرِينَ وَقَالَ :

ـ « اسْمَحُوا لِي يَا أَوْلاَدِي أَنْ أُفَاتِحَكُمْ فِي أَمْرٍ ذِي بَالٍ يَهُمُّكُمْ وَإِنْ كَانَ لاَ يُنَاسِبُ ٱلْمَقَـامَ » .

ـ « تَفَضَّلْ يَا عَمُّ وَلاَ حَرَجَ » .

ـ « إِنَّ وَالِدَكُمْ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَتَقَبَّلَهُ بِالرِّضَاءِ وَٱلْمَغْفِرَةِ ، قَدِ ٱسْتَحَمَّ صَبِيحَةَ يَوْمِ وَفَاتِهِ عِنْدِي فِي ٱلْحَمَّامِ ، وَكَأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ اسْتِعْدَادًا لِلِقَاءِ وَجْهِ رَبِّهِ طَاهِرًا . وَفِي مَسَاءِ ٱلْيَوْمِ نَفْسِهِ ، عِنْدَمَـا أَخَذَ عُمَّالِي يَنْفُضُونَ ٱلْفُرُشَ وَٱللُّحُفَ ، وَٱلْمَسَانِدَ وَٱلنَّضَائِدَ وَجَدُوا حَافِظَةَ نُقُودٍ تَحْتَ وِسَادَةِ ٱلْفِـرَاشِ ٱلَّذِي نَامَ فِيهِ ، تَحْتَوِي عَلَى 100 دِينَارٍ فَرَاجَعْتُ ذَاكِرَتِي فَلَمْ يَبْدُ لِي أَحَدٌ غَيْرُهُ نَامَ هُنَاكَ ، فَتَيَقَّنْتُ أَنَّهَـا لَهُ وَهَا هِيَ ، وَلَوْلاَ ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي دَاهَمَنِي هَذَا ٱلْأُسْبُوعَ ، وَأَقْعَدَنِي عَنِ ٱلْخُرُوجِ مِنَ ٱلْمَنْزِلِ لاتَّصَلْتُ بِكُمْ مُنْذُ ٱلْيَوْمِ ٱلْأَوَّلِ وَلَكِنْ ...... »

وَمَا إِنْ سَمِعَتِ ٱلْأُمُّ وَٱبْنَتُهَا ذِكْرَ ٱلْمِائَةِ دِينَارٍ حَتَّى اسْتَوَتَا قَائِمَتَيْنِ وَصَاحَتِ ٱلْأُمُّ .

« إِنَّهَـا لِي ، إِنَّهَا وَدِيعَتِي بِلاَ شَكٍّ ، نَاوِلْنِيهَـا »

فَقَاطَعَهَـا ٱلْحَكَمُ قَائِلاً : « لاَ ، لاَ ، حَتَّى أُطَابِقَ أَوْصَافَهَـا عَلَى مَا ذَكَرَتِ ٱلْبِنْتُ » قَالَ هَذَا ، وَأَخَذَ حَافِظَةَ ٱلنُّقُودِ ، وَأَخْرَجَ ٱلْمَالَ ٱلَّذِي بِهَـا ، وَتَظَاهَرَ بِعَدِّهِ وَٱلتَّأَمُّلِ مِنْ أَوْصَافِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ أَمَامَهُ .

ـ « اسْمَحُوا لِي يَا أَوْلاَدِي أَنْ أُفَاتِحَكُمْ فِي أَمْرٍ ذِي بَالٍ يَهُمُّكُمْ وَإِنْ كَانَ لاَ يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ » .

ـ « تَفَضَّلْ يَا عَمُّ وَلاَ حَرَجَ » .

ـ « إِنَّ وَالِدَكُم رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَتَقَبَّلَهُ بِالرِّضَاءِ وَٱلْمَغْفِرَةِ ، قَد ٱسْتَحَمَّ صَبِيحَةَ يَوْمِ وَفَاتِهِ عِنْدِي فِي ٱلْحَمَّامِ ، وَكَأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ اسْتِعْدَادًا لِلِقَاءِ وَجْهِ رَبِّهِ طَاهِرًا . وَفِي مَسَاءِ ٱلْيَوْمِ نَفْسِهِ ، عِنْدَمَا أَخَذَ عُمَّالِي يَنْفُضُونَ ٱلْفُرُشَ وَٱللُّحُفَ ، وَٱلْمَسَانِدَ وَٱلنَّضَائِدَ وَجَدُوا حَافِظَةَ نُقُودٍ تَحْتَ وِسَادَةِ ٱلْفِرَاشِ ٱلَّذِي نَامَ فِيهِ ، تَحْتَوِي عَلَى 100 دِينَارٍ فَرَاجَعْتُ ذَاكِرَتِي فَلَمْ يَبْدُ لِي أَحَدٌ غَيْرُهُ نَامَ هُنَاكَ ، فَتَيَقَّنْتُ أَنَّهَا لَهُ وَهَا هِيَ ، وَلَوْلاَ ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي دَاهَمَنِي هَذَا ٱلأُسْبُوعَ ، وَأَقْعَدَنِي عَنِ ٱلْخُرُوجِ مِنَ ٱلْمَنْزِلِ لاتَّصَلْتُ بِكُمْ مُنْذُ ٱلْيَوْمِ ٱلأَوَّلِ وَلَكِنْ ..... »

وَمَا إِنْ سَمِعَتِ ٱلأُمُّ وَٱبْنَتُهَا ذِكْرَ ٱلْمِائَةِ دِينَارٍ حَتَّى اسْتَوَتَا قَائِمَتَيْنِ وَصَاحَت ٱلأُمُّ .

« إِنَّهَا لِي ، إِنَّهَا وَدِيعَتِي بِلاَ شَكٍّ ، نَاوِلْنِيهَا »

فَقَاطَعَهَا ٱلْحَكَمُ قَائِلاً : « لاَ ، لاَ ، حَتَّى أُطَابِقَ أَوْصَافَهَا عَلَى مَا ذَكَرَتِ ٱلْبِنْتُ » قَالَ هَذَا ، وَأَخَذَ حَافِظَةَ ٱلنُّقُودِ ، وَأَخْرَجَ ٱلْمَالَ ٱلَّذِي بِهَا ، وَتَظَاهَرَ بِعَدِّهِ وَٱلتَّأَمُّلِ مِنْ أَوْصَافِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ أَمَامَهُ .

وَقَامَ خَطِيبًا بَيْنَ ٱلْحَاضِرِينَ قَائِلاً : « لَقَدْ تَبَدَّدَتِ ٱلْغُيُومُ ، وَبَانَتِ ٱلشَّمْسُ لِذِي عَيْنَيْنِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيَّ شَكٌّ فِي أَنَّ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةَ صَادِقَةٌ فِي مُدَّعَاهَا ، حَيْثُ كَانَتِ ٱلْأَوْصَافُ ٱلَّتِي ذَكَرَتْهَا ٱلْبِنْتُ مُطَابِقَةً لِمَا عَلَيْهِ ٱلْوَدِيعَةُ . كَمَا لاَ أَشُكُّ ـ وَلَوْ بِمِقْدَارِ ذَرَّةٍ ـ فِي نَزَاهَةِ أُسْرَةِ ٱلْفَقِيدِ وَثِقَتِهَا وَصِدْقِهَا وَحُسْنِ نِيَّتِهَا عِنْدَمَا أَنْكَرَتْ دَعْوَى ٱلْمَرْأَةِ بَادِئَ ٱلْأَمْرِ . وَكَأَنَّ ٱلْأَقْدَارَ أَبَتْ أَنْ تُدَنِّسَ عِرْضَ هَذِهِ ٱلْأُسْرَةِ ٱلْعَرِيقَةِ فِي ٱلْمَجْدِ فَأَلْهَمَتِ ٱلسَّيِّدَ يُوسُفَ ٱلْحَمَّامِيَّ أَنْ يَأْتِيَنَا فِي ٱلْوَقْتِ ٱلْمُنَاسِبِ ، وَبِقُدُومِهِ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ »

ثُمَّ مَدَّ ٱلْمَالَ لِرَبَّتِهِ ، فَتَسَلَّمَتْهُ وَعَبْرَةُ ٱلْفَرَحِ تَطْفِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، شَاكِرَةً ٱلْحَكَمَ ٱلَّذِي تَوَلَّى فَصْلَ ٱلْمُشْكِلِ بِالْحُسْنَى ، وَحَالَ دُونَ عَرْضِهِ عَلَى ٱلْمَحَاكِمِ ، طَالِبَةً ٱلصَّفْحَ مِنْ آلِ أَحْمَدَ عَمَّا صَدَرَ عَنْهَا مِنْ تَهَجُّمَاتٍ وَسُوءِ ظَنٍّ بِهِمْ .

وَقَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَ ٱلْجَمْعُ طَلَبَ سَلِيمٌ أَنْ تُقْرَأَ سُورَةُ « ٱلْفَاتِحَةِ » تَرَحُّمًا عَلَى رُوحِ ٱلْفَقِيدِ ، فَمُدَّتِ ٱلْأَيْدِي وَبُسِطَتِ ٱلْأَكُفُّ ، وَهَمْهَمَتِ ٱلْأَلْسِنَةُ بِتِلاَوَةِ أُمِّ ٱلْكِتَابِ .



الثمـن 0,600 د. ت.